﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٩﴾ [النحل: 119]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقةُ بين أحوالِ من ظلموا أنفسَهم، وبين التَّوبة الهادمةِ لجبال الذُّنوب، مهما كان صخرُها قاسيًا

يقول ابن عاشور: "مَوْقِعُ هذه الآيَةِ مِنَ اللَّواتي قَبْلَها كمَوْقِعِ قَوْلِه السّابِقِ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِمَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٠﴾ [النحل: 110]، فلَمّا ذُكِرَتْ أحْوالُ أهْلِ الشِّرْكِ، وكانَ مِنْها ما حَرَّموهُ على أنْفُسِهم، وكانَ المُسْلِمونَ قد شارَكوهُم أيّامَ الجاهليَّةِ في ذَلِكَ، ووَرَدَتْ قَوارِعُ الذَّمِّ لِما صَنَعوا، كانَ مِمّا يُتَوهَّمُ عُلوقُهُ بِأذْهانِ المُسْلِمينَ أنْ يَحْسَبوا أنَّهُم سَيَنالُهُم شَيْءٌ من غمصٍ لِما اقْتَرَفوهُ في الجاهليَّةِ، فطَمأنَ اللَّهُ نُفوسَهُم بِأنَّهُم لَمّا تابوا بِالإقْلاعِ عَنْ ذَلِكَ بِالإسْلامِ، وأصْلَحوا عَمَلَهُم بَعْدَ أنْ أفْسَدوا، فإنَّ اللَّهَ قد غَفَرَ لَهُم مَغْفِرَةً عَظيمَةً، ورَحِمَهُم رَحْمَةً واسِعَةً"[1].

كما أنَّ موقعَها ممّا سبقَها أيضًا يفتحُ بابَ الأمل أمام كلِّ مذنبٍ؛ مهما كان ذنبُه عظيمًا، ولو بلغ مستوى الافتراءِ على اللّه الكذبَ ومخالفةَ أمره[2]، فالتّوبةُ الصّادقةُ تهدم جبالَ الذّنوب؛ مهما كان صخرُها قاسيًا.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلسُّوٓءَ﴾: السّين والواو والهمزة تدلُّ تصريفاتُها على القُبْحِ، ومِنْهُ سمّيتِ النّارُ سوْءَى؛ لقُبْحِ مَنْظَرِها[3]، ومنه قيل لفَرْجِ الرَّجُلِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 313.
(2) الفخر الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 20/ 283.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوأ).

أوِ المرأةِ: سوْءَة؛ لأنَّ الفطرَةَ السَّويَّةَ تَسْتَقْبِحُ إظْهارَها[1]، وسُمّيتِ السَّيئةُ سيِّئةً؛ لأنَّها عملٌ قبيحٌ[2]، والسّوء: كلُّ ما يَغُمُّ الإنسانَ منَ الأمور الدُّنيويَّة والأُخرويَّة[3].

2) ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾: "الجيمُ والهاءُ واللّامُ أصْلانِ: أحَدُهُما خِلافُ العِلْمِ، والآخَرُ الخِفَّةُ وخِلافُ الطُّمَأْنينَةِ"[4]، والمعنى المحوريُّ الذي تدورُ حوله مادَّة (جهل): خلوُّ الباطن ممّا يفيد أو يُطْلبُ مع جفافٍ، ويلزم ذلك الخفَّةُ، كالنّاقة الموصوفة تُعَدُّ خاليةَ الباطن أو جافَّتَه، ومن هذا: الجهل ضدُّ العلم؛ لأنَّ الجاهل خالي الذِّهن منَ المعلومات ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: 273][5]، والجهلُ على ثلاثة أضْرُبٍ: **الأوَّل**: وهو خلوُّ النّفس من العلم، هذا هو الأصلُ، وقد جعل ذلك بعضُ المتكلّمين معنى مقتضيًا للأفعال الخارجةِ عنِ النّظام، كما جعلوا العلمَ معنى مقتضيًا للأفعال الجاريةِ على النِّظام، **والثّاني**: اعتقادُ الشّيء بخلاف ما هو عليه، **والثّالث**: فعل الشّيء بخلاف ما حقُّه أن يُفعل، سواءٌ اعتقد فيه اعتقادًا صحيحًا أم فاسدًا، كمن يترك الصّلاةَ متعمِّدًا، وعلى ذلك قولُه تعالى على لسان اليهود: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [البقرة: 67]، فجعل فعلَ الهزو جهلًا، وقال ﷺ: ﴿فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ [الحجرات: 6][6]، وهذا المعنى الثّالثُ هو المراد هنا وهو ما يعنيه لفظُ الجهالة.

3) ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾: الصّادُ واللّامُ والحاءُ أصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على خِلافِ الفَسادِ، يُقالُ: صَلُحَ الشَّيْءُ يَصْلُحُ صَلاحًا، ويُقالُ: صَلَحَ بِفَتْحِ اللّام[7]، والمعنى المحوريُّ سلامةُ جسم الشّيء، أي: التئامُه على حاله الأصليَّة، تامَّ النَّفع والخير الذي أوجِد أو أريدَ له: يؤخذُ ذلك من إصلاح الفاسد منَ الأشياء، وأنَّ التّوفيق لأمٌ والتئام، ومن معنويِّ ذلك "الصُّلْح: السِّلْمُ، وتصالح القومُ، وأصلحَ ما بينهم ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (سوأ).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (سوأ).
(3) الرّاغب، المفردات: (سوأ).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (جهل).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جهل).
(6) الراغب، المفردات: (جهل).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صلح).

بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: 9][1]، والصَّلاحُ: ضدُّ الفساد، وهما مختصّان في أكثر الاستعمال بالأفعال، وقوبل في القرآن تارةً بالفساد، وتارةً بالسَّيِّئة، قال تعالى: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التّوبة: 102]، ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: 56][2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التّوبةُ والإصلاحُ، يَجُبّان ما قبلَهما، ومن تابَ تابَ الله عليه

تجُرُّ الآية الكريمةُ المذنبين إلى التَّوبة جرًّا مهما عظمت ذنوبُهم، فتعلنُ مخاطبةَ الرّسول ﷺ: ثمّ إنَّ ربَّك - أيُّها الرّسول الكريمُ - لَواسعُ الغفران والرحمة لأولئك الذين عملوا الأعمالَ السّيئةَ، بدافع الجهلِ والسَّفه والطّيشِ أو الاجتراء وعدم تدبُّر العواقب، ثم إنَّهم بعد ذلك تابوا توبةً صادقةً عن تلك الأعمال السّيئةِ، ولم يكتفوا بذلك، بل أصلحوا من شأن أنفسِهم، حيث أوقفوها عند حدود الله تعالى وأجبروها على تنفيذ أوامره، واجتنابِ نواهيه[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ العطف بالحرف ﴿ثُمَّ﴾:

أفادَ التَّرتيبُ الرُّتبيُّ هنا طمأنةَ المسلمين عن غفرانِ ذنوبهم السّابقةِ

﴿ثُمَّ﴾ كما هو مقرَّرٌ في معاني الحروف تفيدُ العطفَ مع التَّرتيب والتَّراخي الزَّمنيِّ أو الرُّتبيِّ أو كليْهما، وهي هنا تفيد التَّراخيَ الرُّتبيَّ؛ لأنَّ الجملة المعطوفة بـ﴿ثُمَّ﴾ تضمَّنت حكمَ التَّوبة، وأنَّ المغفرة والرَّحمة من آثارهما، وذلك أهمُّ عند المخاطَبين ممّا سبقَ من وعيد، فالآياتُ السّابقةُ بيَّنت أحوالَ أهل الشِّرك، وما حرَّموه على أنفسهم في الجاهليَّة، وربَّما كان قد شاركَهم المسلمون المخاطَبون بعضَها، فجاءت هذه الآيةُ معطوفةً بـ﴿ثُمَّ﴾، التي أفادتِ التَّرتيبَ الرُّتبيَّ؛ لطمأنة المسلمين بأنَّ من تاب وأصلح، فإنَّ الله قد غفر له[4].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (صلح).
(2) الراغب، المفردات: (صلح).
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 8/ 255.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 313.

وفضلًا عن هذا الغرضِ الخاصّ الذي يحقِّقُه التّراخي الرُّتبي، فإنَّه يحقِّق كذلك غرضًا أعمَّ، هو بيانُ أنّ الافتراء على الله ومخالفةَ أمره، لا يمنعُهم منَ التّوبة وحصول المغفرة والرَّحمة[1]، وذلك لأنَّهم ربَّما توهَّموا أنّ عظمَ ذنبِ الافتراء على الله مانعٌ من قَبولها، فقد سبقَ هذه الآيةَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ لَا يُفۡلِحُونَ ١١٦ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١١٧﴾ [النحل: 116 - 117] فجاءت هذه الآية لتزيل هذا التّوهُّمَ.

سرُّ تتابعِ المؤكِّدات في الآية:

أُكِّدتِ الآيةُ بـ﴿إِنَّ﴾ والجملةِ الاسميَّة، وإعادةِ صدرِ الآية لطول الفصل ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا﴾، واللّامِ المزحلَقة الدّاخلة على الخبر.

أساليبُ التّأكيد ترتبطُ بشدَّةِ بخوف التّائبين من عدم قَبولِ توبتهم واقعًا أو تنزيلًا

وتآزرُ هذه المؤكِّدات إمّا لكثرة خوف المعنيّين من ألّا يُغفر لهم تهيُّبًا لما فعلوا ووجَلًا؛ فاحتاجوا منَ المؤكِّدات ما يُطمئن بالهم، ويهدِّئُ من روعهم، وإمّا لإنزالهم منزلةَ المنكرين لما يظهرُ من حالهم وفرط خشيتهم.

نكتةُ مجيء لفظةِ الرَّبِّ وإضافتها:

لفظةُ الرُّبوبيَّة فيها طمأنةٌ وتسريةٌ لقلب المخاطَب

في إيثار لفظة الرُّبوبيَّة تسريةٌ وطمأنةٌ لقلوب المؤمنين من أن ينالهم شيءٌ منَ المؤاخذة والحساب؛ فإنَّ الرُّبوبيَّةَ تقتضي معانيَ العناية والرِّعاية والتَّسرية والتَّسلية؛ فإنَّ الرَّبَّ هو المصلحُ والسيِّد والمربّي.

وفي إضافة هذا اللَّفظ إلى ضميره ﷺ تشريفٌ له ما بعده تشريفٌ، فكأنَّه يقول له: إنَّه ربُّك أنت، وليس لك ربٌّ سواه.

بلاغةُ الالتفاتِ في الآية الكريمة:

في العُدولِ من ضمائر التَّكلّم إلى الغيبة، تقريرٌ لسُنن الله في الرَّحمة

عدلتِ الآيةُ في ضمائرها المتعلِّقةِ بالله تعالى من التَّكلُّم في الآية السّابقة في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا مَا قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُۖ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 20/ 283.

وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ [النحل: 118] إلى الغيبة في قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾، ومعلومٌ أنَّ الغرض العامَّ لهذا الالتفات، هو تلوينُ الخطاب وتنبيهُ السّامع وتنشيطُه، وتطريةُ الخطاب، فضلًا عن أنَّه يختصُّ بنكات بلاغيَّةٍ نفيسةٍ في كلِّ موضعٍ من مواضعه على حِدةٍ، ولعلَّ السَّببَ في العدول هنا عن قوله: (ثمَّ إنَّني للذين عملوا السّوء بجهالة..) إلى النَّظم الكريم مع توجيه الخطاب إلى النَّبيِّ محمَّدٍ ﷺ، ليتولَّى هو بنفسه تبليغَهم بهذا، كما أنَّ في مجيئها على هيئة الجملة الخبريَّة المؤكَّدة، والَّتي تعرضُ سنَّةً من سُنن الله الاجتماعيَّة ما يؤكِّد أنَّها حقيقة ثابتةٌ مقرَّرةٌ ومعروفةٌ لكلِّ من آمن، فلذلك عرضتْها الآيةُ بضمائر الغيْبة عنه ﷻ، وهي تخاطب نبيَّه ﷺ على أنَّ هذا الأمر ينبغي أن يدركوه، ويُحدِّثوا به غيرَهم عن ربِّهم جلَّ شأنه.

معنى لام الجر في قوله: ﴿لِلَّذِينَ﴾:

اللّام هنا يمكن أن تكون للتَّخصيص على اعتبارِ أنَّ هذه المغفرةَ خاصَّةٌ بمن يعمل السّوء بجهالة، دون غيره، ويمكن حملُها على معنى الاستحقاق؛ لأنَّهم يستحقّونها وأهلٌ لها، والحمل على التَّخصيص أولى.

المغفرةُ خاصَّةٌ بمن يعمل السّوءَ بجهالة ثمَّ يتوبُ دون غيره

نكتةُ التَّعبير بالاسمِ الموصول وصلتِه:

الاسمُ الموصول مبهمٌ يُؤْتَى به في الأصل عند تعذُّر حصر المُراد به وتحديده، ولأغراض بيانيَّة أخرى كثيرةٍ، وهو مفتقرٌ لجملة صلة الموصول الَّتي تزيل إبهامَه، وهي هنا جملة فعليَّة ﴿عَمِلُواْ﴾، ويفتقر أيضًا إلى ضمير عائدٍ في جملة صلة الموصول سواءٌ أكان مذكورًا أم مقدَّرًا، والغرضُ من مجيئه هنا العمومُ، ليشمل كلَّ من عمل السّوء بجهالةٍ، وفي هذا حفظٌ لهم وعدمُ انتهاكٍ لأسرارهم، ويمكن أن يفيد الاسمُ الموصول هنا معانيَ التَّفخيم لشأن منِ استحقَّ هذه المغفرةَ.

تفخيمُ شأن التّائبين، وتجديدُ قَبول توبتِهم

وأمّا التَّعبيرُ بالجملة الفعليَّة في صلة الموصول فللدّلالة على تجدُّد المغفرة بتجدُّد الذَّنب، وفي هذا تطمينٌ لهم، ويمكن أن تكون فائدةُ التَّعبير بالفعل الماضي الدَّلالةَ على أنَّ هذا السّوء قد مضى، وانتهى منهم في الزَّمن الفائت.

معنى (أل) في لفظ ﴿ٱلسُّوٓءَ﴾:

التَّوبةُ تجُبُّ ما فرطَ منَ الذُّنوب، وإن كانت كزبدِ البحر

أفاد التَّعريفُ باللّام هنا معانيَ الجنسيَّة الاستغراقيَّة؛ ليعمَّ كلَّ ما من شأنه أن يغمَّ صاحبَه، وأن يُسمّى سوءًا، يقول الآلوسيّ: السّوء ما يُسيء صاحبَه من كفر أو معصية، ويدخلُ فيه الافتراءُ على الله تعالى، وعنِ ابن عبّاس أنَّه الشِّرك، والتَّعميمُ أولى[1].

بلاغةُ المجاز في لفظِ ﴿ٱلسُّوٓءَ﴾:

من شأن الذَّنبِ أن تغمَّ صاحبَها، وتعودَ عليه بالسّوء

تقدَّم في معنى ﴿ٱلسُّوٓءَ﴾: أنَّه كلُّ ما يغمُّ الإنسانَ من أمورٍ مادّيَّة أو معنويَّة، وعُبِّر بها هنا عنِ الذُّنوب؛ لأنَّ شأنها أن تغمَّ صاحبَها في الدُّنيا والآخرة، فالتَّعبيرُ بالسّوء (مجاز مرسل) عنِ الذَّنب بعلاقة السببيَّة والمسبَّبيَّة، لكون السّوء مُسبَّبًا عنِ الذُّنوب، والذُّنوبُ سببٌ فيه، فأطلق المسبَّب، وأراد السَّبب.

أو على سبيل (الاستعارة التَّصريحيَّة) بأن يكون قد شبَّه الذَّنب بالسّوء بجامع ما يتركُه من أثرٍ في النَّفس والبدن، ويمكن أن يكون هنا مجازًا بالحذف، والتَّقديرُ: (يعملون الأعمال السّوءَ)، فحذف الموصوفَ للعلم به وترك الصِّفةَ.

معنى الباء في شبه الجملة ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾:

الجهالةُ حالةٌ مصاحبةٌ للمرء، عند ارتكابِه الذَّنبَ، تدلُّ على فُقدان الوعي بمآله

الباء هنا يمكن أن تكون للمصاحبة والملابسة، فكلُّ ذنبٍ يقعُ منَ العبد لا يكون إلّا عن جهالة، أي: إنَّ العبد حالةَ ارتكابه الذَّنبَ يكون جاهلًا، وليس المعنى كونَه جاهلًا بكونه ذنبًا، فإنَّ مثلَ هذا معفوٌّ عنه، لقوله تعالى: ﴿وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 368.

وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: 5] ولحديث: "إنَّ اللّه وضع عن أمتي الخطأ والنِّسيان"[1].

وعليه، فيكون موضعُ شبه الجملة ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ في محل النَّصب على الحاليَّة، ومعاني الإلباس والإلصاق لا تنفكُّ عن الباء[2]، ويمكن أن تكون الباء للسّببيّة، على معنى: أنَّ الجهالة هي السَّببُ الحاملُ لهم على العمل[3]، وكلا المعنيين مقبولٌ سائغٌ.

فائدةُ التَّقييد بلفظ ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾:

يغفرُ اللهُ الذُّنوبَ برُمَّتها، سواءٌ أكانت بجهالة أم بغيرها

التَّقييدُ بالجهالة هو لبيان الواقع، فإنَّ من يعملُ السّوءَ لا يعمله إلّا بجهالة، وقلَّةِ فكرٍ في عاقبة الأمر، أو عند غلبة الشَّهوة[4]، وذكر أبو حيّان أنَّه: لَيْسَ المَعْنَى أنَّهُ يَغْفِرُ لِمَنْ يَعْمَلُ السّوءَ بِجَهالَةٍ، ولا يَغْفِرُ لِمَنْ عَمِلَهُ بِغَيْرِ جَهالَةٍ، بَلِ المُرادُ أنَّ جَمِيعَ مَنْ تابَ، فَهَذا سَبِيلُهُ، وإنَّما خَصَّ مَنْ يَعْمَلُ السّوءَ بِجَهالَةٍ؛ لِأنَّ أكْثَرَ مَنْ يَأْتي الذُّنُوبَ يَأْتِيها بِقِلَّةِ فِكْرٍ في عاقِبَةٍ، أوْ عِنْدَ غَلَبَةِ شَهْوَةٍ، أوْ في جَهالَةِ شَبابٍ، فذكر الأكثر على عادَةِ العَرَبِ في مثلِ ذَلِكَ[5].

نكتةُ تنكيرِ لفظ ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾:

التَّعريضُ بالجهالة، من حيث إنَّ المعاصيَ لا تقعُ إلّا عن جهالةٍ

التَّنكيرُ هنا قد يفيد التَّكثيرَ والتَّعظيمَ، أي: جهالةٌ كبيرة وعظيمةٌ بما يجب عليهم أن يعملوه، ويمكن أن يفيد التَّنكيرُ التَّحقيرَ للتَّقليل من شأن هذه الجهالة والتَّعريض بها؛ لأنَّ المعاصيَ كلَّها لا تقعُ إلّا بجهالة، والثّاني أقرب.

نكتةُ تقديم شبهِ الجملةِ على خبر ﴿إِنَّ﴾:

تقدَّم شبهُ الجملة ﴿لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾، وما عُطف عليه

(1) ابن ماجه، سنن ابن ماجه، كتاب: الطّلاق، الحديث رقم: (2045).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 314.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 368.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 369.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 609.

للعناية بحال أصحابها، وتشويقِهم للخبر بعدها، ولتشويقهم إلى التَّوبة؛ فإنَّ الذُّنوب كلَّها تقع بجهالة، وإنَّما ذكر الجهالةَ؛ ليبيِّن لهم أنَّ المعاصيَ لا تقع إلّا بسبب خلوِّ النَّفس منَ الوعي بمآلات الذَّنب وعواقبه، أو من عدم الانتفاع به، على معنى: إنَّ ربَّك - لمن عملوا السّوء بجهالة أو بدونها، ثمَّ تابوا من بعدها - لغفورٌ رحيمٌ.

المعاصي لا تقعُ إلّا بسبب خُلوِّ النَّفس منَ الوعي بمآلات الذَّنب وعواقبِه

دلالةُ الحرف ﴿ثُمَّ﴾ في ﴿ثُمَّ تَابُواْ﴾:

أفادت ﴿ثُمَّ﴾ هنا التَّراخيَ الرُّتبيَّ؛ لأنَّ الجملة المعطوفة بـ﴿ثُمَّ﴾ تضمَّنت حكمَ التَّوبة، والرَّحمةُ والمغفرةُ من آثارها[1]، ولا بأس من حملها على كلا معنيَيها: التَّراخي الرُّتبيِّ والزَّمانيِّ أيضًا؛ لأنَّ التَّوبة في الوجود متأخِّرة زمانًا عنِ المعصية.

الإشـــارةُ إلى أنَّ التَّوبة بعد الذَّنب الكثير يقظةٌ للضَّمير

نكتةُ التَّعبير بالفعل الماضي ﴿تَابُواْ﴾:

دلَّ الفعلُ الماضي على وقوع التَّوبة بعد العمل مباشرةً، فالعملُ وقع في الفعل الماضي، وكذلك التَّوبة، ولا يؤثِّر على هذا المعنى كونُ ﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخي، إذا اعتمدنا فيها كونَها للتَّراخي الرُّتبي.

عـمـلُ الـسّـوء يتطلَّب توبةً على الـفـور أو على التَّراخي الرُّتبيِّ

معنى ﴿مِنۢ﴾ في الآية:

﴿مِنۢ﴾ في قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ﴾ ابتدائيَّة، وهو المعنى الَّذي لا يكاد يفارقها، والمعنى: تابوا ابتداء بعد ذلك.

نكتةُ الإشارة بلفظ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

أشار بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ لعمل السّوء بجهالة، وذلك للإيجاز في ترك ذكرِه لتقدُّم الحديث عنه، وأمّا البُعدُ المفهوم من اسم الإشارة هنا؛ فإنَّه يشير إلى البُعد المعنويِّ في الدَّركات والانحطاط؛ فإنَّ عمل السّوء سواءٌ أكان بجهالة أم بغير جهالة من شأن المؤمن أن يتجنَّبه، وأن يبعدَه عنه.

فـعـلُ الـسّـوء مُؤذنٌ بانحطاط صـاحـبِـه في الدَّركات

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 313.

غرضُ عطف قوله: ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾:

تحتاجُ التَّوبةُ إلى استقامة بعدها وإصلاحٍ

عطفتِ الآية الإصلاحَ على التَّوبة ليبيِّن لهم أنَّ التَّوبة القلبيَّة دون مباشرة العمل في سبيل تحقيقها لا تكفي، بل لا بدَّ أن يرافقها الفعلُ، فضلًا عن أنَّ بعض الذُّنوب أوْجَبُ في مباشرة الإصلاح بعدها، لا سيَّما تلك المتعلِّقة بحقوق العباد، وفسَّر بعضهم الإصلاحَ بالاستقامة على التَّوبة[1].

نكتةُ حذفِ متعلَّق ﴿وَأَصۡلَحُواْ﴾:

حذفُ مفعول الإصلاح هنا يفيد العمومَ؛ ليشمل كلَّ ما هو يمكن إصلاحُه، فيعمُّ الإصلاحُ ما بينه وبين نفسه، في إصلاح توبته وعمله، ويشمل ما بينه وبين غيره من الحقوق المادّيَّة والمعنويَّة، وما بينه وبين ربِّه.

حذفُ المفعول هنا لإفادة العمومِ، وتنوُّعِ معاني الإصلاح المتاحِ

نكتةُ فصل جملة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا﴾:

فُصِلت هذه الجملةُ، ولم تُعطف على سابقتها لكمال اتِّصالها بها، فهي توكيدٌ لفظيٌّ[2] لقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ﴾، وإنَّما أُعيد ذكرُها لطول الانقطاع، والفاصلِ بين المبتدأ والخبر، فضلًا عن أنَّ إعادة ذكرها فيه من التَّوكيد وتقوية الحكم ما فيه.

في إعادة بعضِ الكلام توكيدٌ وتقريرٌ، يعزِّز المعنى، ويوضحُ الدِّلالة

فائدةُ تتابعِ المؤكِّدات في الآية:

أُكِّدتِ الجملةُ بـ﴿إِنَّ﴾ والجملةِ الاسميَّة، واللّامِ المزحلقة، وسببُ تآزر هذه المؤكِّدات إمّا لكثرة خوف المعنيّين من ألّا يُغفر لهم؛ فاحتاجوا من المؤكِّدات ما يُطمئن بالهم، ويهدِّئُ من روعهم، وإمّا لإنزالهم منزلةَ المنكرين لما يظهر من حالهم وفرط خشيتهم.

تزاحمُ المؤكِّدات، يتلاءمُ مع كثرة الخوفِ من عدم الغفرانِ

معنى ﴿مِنۢ﴾ في شبه الجملة:

﴿مِنۢ﴾ هنا ابتدائيَّةٌ، وهو المعنى الَّذي لا يكاد يفارقُها، فغفرانُ السّيئاتِ بمجرَّد المبادرةِ إلى التَّوبة لطفٌ منَ اللّه بعباده.

التّأسيس لكون الغفران بعد التَّوبة والإصلاح

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 368.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 314.

عوْدُ الضَّمير في قوله: ﴿بَعْدِهَا﴾:

أبوابُ التَّوبة من بعدِ فعلِ السّوء مفتوحةٌ لا تُغلقُ

يقول أبو حيّان: والضَّميرُ في ﴿مِنْ بَعْدِهَا﴾ عائد على المَصادِرِ المَفْهومَةِ مِنَ الأَفْعالِ السّابِقَةِ، أيْ: مِنْ بَعْدِ عَمَلِ السّوءِ والتَّوْبَةِ والإصْلاحِ، وقيلَ: يَعودُ على الجَهالَةِ، وقيلَ: على السّوءِ على مَعْنَى المَعْصيَةِ[1]، ولعلَّ القولَ بعموم عوْدِها على جميع المذكورات أولى.

معنى اللّام في قوله: ﴿لَغَفُورٌ﴾:

توكيدُ الغفران، دليلُ حلمِ الرَّحمن

هي لام التَّوكيد، وتُسمّى (اللّام المزحلقة) أيْضًا، وذَلِكَ لِأَنَّ أصلها لامُ الابتداء، فكرهوا افْتِتاح الكَلام بتوكيدين، فأخَّروا اللّام دون (إنَّ) لِئَلّا يتَقَدَّم مَعْمول الحَرْف عليه[2]، وهي مفيدة للتَّوكيد، كما مضى بيانُه.

بلاغةُ التَّذييل بالاسمين ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

مغفرةُ اللهِ تعالى عامَّةٌ، ومستمرَّةٌ إلى يوم القيامة

جملةُ ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ تذييلٌ مناسب للمقام؛ لأنَّ هذيْن الاسميْن يأتيان مقترنَيْن في المواقع التي تُذكر فيها التَّوبةُ أوِ الذُّنوب؛ ترغيبًا في التّوبة منَ الذنوب، وفتحًا لأبواب الأمل أمام العُصاة، ويأتيان في فواصلِ آيات الأحكام أيضًا؛ لأنَّ التَّكليف يقتضي التَّقصيرَ، وهذا يُفضي إلى طلب المغفرة والرَّحمة، وقدِ اقترن الاسمان في القرآن الكريم نحو سبعين مرَّة.

نكتةُ تقديم: ﴿لَغَفُورٌ﴾ على ﴿رَّحِيمٌ﴾:

من كمالِ رحمة اللهِ، مغفرتُه للمُذنبين، وتوبتُه على العصاة النّادمين

قُدِّم لفظ ﴿لَغَفُورٌ﴾ على ﴿رَّحِيمٌ﴾ لنكتةٍ لطيفة؛ فمغفرةُ اللّه سبحانه ذنوبَ عباده التّائبين هي من رحمتِه بهم، فاللّه سبحانه هو الذي يغفر الذُّنوب جميعًا؛ لأنَّه رحيم.

فتقديم ﴿لَغَفُورٌ﴾ على ﴿رَّحِيمٌ﴾ جاء في غاية المناسبة، فهو من

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 609.

(2) ابن هشام الأنصاري، مغني اللّبيب، ص: 304.

باب تقديم المسبَّب على السّبب: فغفرانُ الله ذنوبَ التّائبين مسبَّبٌ عن رحمته ﷻ، أو لأنَّ المغفرة تقتضي مطلقَ السَّتر والتَّغطية، وأمّا الرَّحمة؛ فهي مزيد تفضُّل، فقدَّم سترَ الذَّنب أوَّلًا، ثمَّ بيَّن أنَّه محتاجٌ إلى الرَّحمة.

نكتةُ تنكيرِ الاسمَيْن الجليلَيْن ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

جاء هذان الاسمان الجليلان ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ نكرتين لإفادة التَّعظيم، والمعنى: أنَّه ﷻ غفور لكلِّ ذنب، وهو سبحانه رحيمٌ يلطف بكلِّ عبد تائبٍ.

لا تضيقُ رحمةُ الله بعاصٍ، ولا يتعاظمُ على التَّوبة ذنبُ مذنبٍ

لا يملُّ الله من مغفرةٍ، ولا تضيقُ رحمته عن مُنيبٍ

غرضُ صِيَغِ المبالغة في ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾:

عُبِّر بصيغتَي المبالغة ﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ على وزن (فعول) و(فعيل)؛ للدّلالة على كمال الصِّفتين؛ إذ أطلقت على مستحقٍّ للكمال، أو أنَّها - أي: المبالغة - لإفادة الكثرة فيهما، وهو إطلاقٌ على وجه الحقيقة لا على سبيل المبالغة بمعناها المفهوم من كونها دالَّةً على الزّيادة على الواقع، فما يسمَّى بصيغ المبالغة إذا أُطلقت على الله ﷻ؛ فهي مطلقةٌ بحسب وضعِها اللُّغويّ، ولا مبالغةَ فيها بمعناها المحذور الذي سبق ذكرُه، فهي بمنزلة فعلها الذي حُذف معمولُه توسُّعًا لإرادة التَّعميم؛ فإنَّ صفاتِ الله ﷻ صفاتُ عموم وشمول تامٍّ فيما هي له، والمعنى هنا: تكرُّر المغفرة من الله لعباده التّائبين واستمراريَّتُها مع تكرُّر ذنوبهم ثمَّ التَّوبةِ عنها، وقد يكون ورودهما على الصّيغة، من باب الصّفة المشبَّهة، فيكون المرادُ ثبوتَ صفتَي المغفرة والرَّحمة له سبحانه.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الفعل والعمل:

الفِعْلُ مؤثِّرٌ من جِهَةِ التَّأثيرِ، وهو عامٌّ سواءٌ أكانَ بإجادةٍ أم غيرِ إجادةٍ، أو كانَ بِعِلْمٍ أم غيرِ عِلمٍ، وقصدٍ أم غيرِ قصدٍ، وكَما كانَ

من الإنْسانِ والحيوان والجماداتِ، وأمّا العملُ؛ فهو كُلُّ فِعْلٍ يكونُ منَ الحيوانِ بقصدٍ؛ فهو أخَصُّ مِن الفعلِ؛ لأنَّ الفعلَ قَد يُنسبُ إلى الحيواناتِ الَّتي يَقَعُ مِنْها فِعلٌ بغيرِ قَصدٍ، وقَد يُنسبُ إلى الجماداتِ، والعملُ قَلَّما يُنسَبُ إلى ذَلكَ[1]، فهو بذلك يدلُّ على العموم، وعلى عدم الإتقان، والتعبير في الآية بـ ﴿عَمِلُواْ﴾، مطابق لما ورد من معانٍ؛ فإنَّ عملهم كان مقصودًا وممتدًّا زمانُه.

الفعلُ قد يقع بقصدٍ أو بدون قصدٍ، بعلمٍ أو بغير علمٍ

(1) الراغب، المفردات: (عمل).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والعشرون،
سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والعشرون، سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 27 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-24-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 27 : المجلد السابع والعشرون، سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-24-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7597590 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»